



ردمد إلكتروني: 2661-7404

ص.ص: 1462- 1440

المجلة الأكاديمية للبحوث القانونية والسياسية

العدد: الأول

المجلد: التاسع

ردمد ورقي: 2571-9971

السنة: 2025

إشكاليات في البحث الاجتماعي

إشكاليات في البحث الاجتماعي

Issues in Social Research

شتوح أحمد عبد اللطيف *

أستاذ محاضر - أ- جامعة الأغواط

aa.chettouh@lagh-univ.dz

تاريخ إرسال المقال: 2025/02/07 تاريخ قبول المقال: 2025/03/01 تاريخ نشر المقال: 2025/03/20

ملخص:

يعد البحث الاجتماعي أداة أساسية لفهم الظواهر المجتمعية وتحليلها، إلا أنه يواجه العديد من الإشكاليات التي قد تؤثر على دقته ومصداقيته. تتمثل هذه الإشكاليات في التحيز المعرفي والذاتي، وصعوبة ضبط المتغيرات الاجتماعية، إضافة إلى التحديات الأخلاقية. كما أن اختيار العينة وطبيعتها وتفسير البيانات، وإمكانية تعميم النتائج تظل من القضايا المعقدة التي تتطلب إتباع منهجيات علمية صارمة. لذا، فإن التعامل مع هذه التحديات يستلزم التزاما بالموضوعية واستخدام أساليب بحث دقيقة لضمان نتائج دقيقة تسهم في تطوير المعرفة في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

الكلمات المفتاحية : المنهج - النظرية الاجتماعية - التحيز المعرفي.

*المؤلف المرسل

Abstract :

Social research plays a crucial role in understanding and analyzing societal phenomena. However, it faces several challenges that can impact its accuracy and reliability. These issues include researcher bias, difficulties in controlling social variables, and ethical concerns related to participant rights and privacy. Additionally, challenges in sampling ,data interpretation, and result generalization make the research process more complex. Addressing these issues requires a commitment to objectivity and the use of rigorous scientific methods to ensure credible and meaningful findings that contribute to the advancement of humanities and social Sciences

مقدمة:

ظهرت العديد من المدارس الفكرية العربية التي حاولت فهم الواقع الاجتماعي، وطرحت العديد من الحلول والأطروحات الفكرية لتجاوز التبعية الفكرية، والخروج بإنتاج معرفي وعلمي يتواءم وخصوصية المجتمعات العربية الإسلامية؛ لتطرح أيضا إشكالية التحيز للنماذج والنظريات الغربية التي تعاني منها جامعاتنا، ومحاولة إعادة الجامعات العربية من خلال نخبتها المثقفة إلى إرثها المعرفي التاريخي وتمكين لها كأحد الأطر المعرفية والاجتماعية المهمة في عملية التنمية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من خلال جودة بحوثها وأصالتها.

جاءت هذه الورقة بمنهج تاريخي وتحليلي لتبحث في بيان العلاقة بين البناء النظري والواقع الاجتماعي من جهة، وكيفية تجاوز الحقل النظري الغربي كمنبع للمعرفة في حالة من التوازن الفكري وحتى النفسي ، لكي لا نلغي ونرفض الاجتهادات الغربية على الأقل في جانب الأدوات المنهجية الصالحة للاستغلال في البحوث العلمية.

إشكاليات في البحث الاجتماعي

المبحث الأول: مفاهيم أساسية

قبلولوج لأي موضوع بحث لابد من تحديد المفاهيم الخاصة به، ومن أهم المفاهيم المتعلقة بالموضوع مفهوم: المنهج، النظرية الاجتماعية، النظرية المعيارية..... وهذا ما نتناوله بشرح في هذا المبحث.

المطلب الأول: مفهوم المنهج

أولاً: مفهوم إجرائي للمنهج

نعني هنا بالمنهج ما هو متعارف عليه اصطلاحاً أي الطريقة المتبعة في كشف حقيقة ما أو البرهنة عليها؛ ونعني به أيضاً مجموع الخلفيات والتصورات والمفاهيم التي تصدر عن الباحث في عملية بحثه، وتشكل سلطته المرجعية، وتحدد جهازه المفاهيمي الذي يمارس عليه ضغطاً بطريق مباشر أو غير مباشر في مجال البحث وعملية التأويل والتفسير.

فالمنهج حسب هذا السياق يعني العقل كما حدده لالاند في معجمه، بين العقل المكوّن والعقل المكوّن، فمثلاً مفهوم "الخطاب" عند فوكو الذي يتحول عنده إلى "السلطة".¹ وسنخصص مبحث يشرح المنهج وإشكالية تطبيقه في العلوم الإنسانية والاجتماعية.....

المطلب الثاني - مفهوم النظرية الاجتماعية والنظرية المعيارية:

النظرية هي كلمة غامضة ولها دلالات متعددة، فتعرف النظرية العلمية على أنها علاقة قائمة بين من جهة ظاهرة عامة أو أقل عدد ممكن من الظواهر العامة، ومن جهة أخرى كل الظواهر الخاصة

¹ - محمد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، ط4، 2008، ص 12.

إشكاليات في البحث الاجتماعي

الخاضعة إليها. فنظرية العلمية هي نسق فكري و ثمرة لعملية تجريدية ترمي إلى صياغة الواقع وتصوره بصفة مبسطة ولها عدة مفاهيم ووظائف نوضحها كالتالي:.

أولاً: النظرية الاجتماعية (العلمية)

هي نسق من الأفكار تصف بالانسجام والارتباط والتنسيق المنطقي، فهي عبارة عن كل مرتب ومصنف حول نواة مركزية. إذن لنا كل الحق أن نقول أن النظرية تركز على المعرفة العلمية لا على التأملات الخيالية البعيدة عن الواقع؛ لكن غاياتها أبعد لأنها في الحقيقة تتجاوز حدود المعرفة العلمية لكي لا نسقط في فخ الوضعية.

إن إعداد نظرية ما تساوي صيرورة تنطلق من معطيات ناجمة عن العلم في زمان ومكان ما وشروط معينة، فهي عملية خاصة بالتركيب والتعميم، والرامية لربط بين الظواهر، وفي هذه العملية لا نكتفي بصياغة ماذا نعرف فقط ولكن أيضاً ماذا نفترضه. إذن كل نظرية تحتوي على قسط من الخيال والإبداع انطلاقاً من الواقع الملموس لكي لا نسقط في فخ الميتافيزيقيا.

قد استعمل اصطلاح النظرية الاجتماعية لأول مرة للتعبير عن نظرية الدولة، هذه النظرية التي اهتمت بدراسة أصل نشوء الدول الحديثة مع التبريرات الفلسفية والعلمية للأشكال التي تتخذها ، وهناك مجموعة من المؤلفات والكتابات الأدبية التي يمكن أن توضع تحت عنوان النظرية الاجتماعية أو تحت عنوان تاريخ الفكر، ولكن لما كانت هذه المؤلفات والكتابات تدور حول طبيعة العلاقات الإنسانية و المجتمع البشري فمن المستحسن استعمال اصطلاح النظرية الاجتماعية لوصفها وتحليلها والتعبير عنها.

ثانيا: شروط علمية النظرية

النظرية الاجتماعية هي مجموعة من الأفكار والحقائق العقلانية والنظامية التي تم برهانها وإثباتها

علميا بعد إجراء الدراسة الأكاديمية والميدانية. ومن الشروط التي لابد أن تتوفر في النظرية العلمية، بحيث

تكون قادرة على تفسير الظواهر والعلاقات والتغيرات والملابسات التي تتعلق بموضوعها كآتي:

- يجب أن تكون أفكار ومبادئ ومفاهيم النظرية مترابطة ومتكاملة بحيث تملأ مادتها من التناقض

والتضارب.

- يجب أن تكون النظرية معبرة عن فكرة أو أفكار أو مبادئ واحدة ومركزة ومتسلسلة تسلسلا نظاميا بعيدا

عن التعقد والتشوش والارتباك.

- ينبغي أن تكون صحة النظرية نسبية وليس مطلقة ، كما يجب أن تكون قابلة للتغير والتعديل تبعا لتغير

الظروف الموضوعية والعوامل الفاعلة التي تحدد درجة قوتها وزخمها.

- النظرية الجديدة والصحيحة هي النظرية التي تتوصل إلى نفس الحقائق والاستنتاجات إذا تكررت دراستها

وفحوصها وإثباتها خلال فترات زمنية مختلفة.

- ينبغي أن تكون المادة العلمية للنظرية مشتقة من طبيعة الواقع الاجتماعي الذي توجد فيه، وأن تكون قادرة

من تفسير جميع الظواهر والملابسات التي تهتم بدراستها وتحليلها، والتفسير ينبغي أن يكون عقلانيا ومستمد

من طبيعة الظاهرة أو المشكلة المدروسة وليس من تصورات وأهواء ومصالح الباحث. 2

ثالثا: النظرية المعيارية

² - إحصان محمد حسن، نظريات الاجتماعية المتقدمة، دار وائل للنشر، الأردن، عمان، ط1، 2005، ص-ص 18-20.

إشكاليات في البحث الاجتماعي

أما النظرية المعيارية: هي تلك النظرية التي تصف ما ينبغي أن يكون عليه الواقع، وتتسم بأحكام قيمية ؛ أي وصف ما ينبغي أن يكون بالنظر إلى معايير معينة. وتعتبر نهج فكري يسعى إلى وضع معايير أو مبادئ توجيهية تحدد ما يجب أن يكون.. بدلا من تحليل ما هو كائن تستخدم هذه النظرية في الفلسفة، الأخلاق ، العلوم السياسي ة والاجتماعية لتقييم السلوكيات والممارسات بناءا على معايير مثالية وأخلاقية..... وقد وضع الدكتور زاهي المغربي في كتابه النظرية السياسية المعيارية وعلم السياسة مجالات استخدام النظرية المعيارية في البحوث الاجتماعية وركز فيها على اشكاليات تطبيقها.....

المطلب الثالث : مفهوم التحيز المعرفي

التحيز المعرفي هو نمط من التفكير غير العقلاني يؤدي إلى اتخاذ قرارات وتكوين أحكام مسبقة وغير موضوعية يحدث هذا التحيز نتيجة عوامل مركبة نفسية واجتماعية (ايديولوجية) وهذا ما نشرحه في هذا المطلب وكيف يؤثر التحيز المعرفي على مسار البحث العلمي.....

أولا: التحيز المعرفي

لمعنى التحيز تفسيرات عديدة، ولكن الذي يناسب البحث هو المعنى القائل بالميل إلى فئة دون سواها، أي الانضمام والموافقة في الرأي وتبني رؤية ما، مما يعني رفض الآراء الأخرى. هذا عن الجانب اللغوي، أما الجانب الاصطلاحي، فتحيز يكون في المجال المعرفي بحسب الأستاذ المسيري، فينطلق من أن المناهج العلمية الحالية المستعملة من قبل العلماء والباحثين ليست محايدة تماما،

إشكاليات في البحث الاجتماعي

بل إنها تعبر عن مجموعة من القيم التي تحدد الرؤية ومسار البحث وتقرر مسبقا كثيرا من النتائج وهذا ما يطلق عليه التحيز، بلغة أخرى فتح المجال للدراسة في ما هو ممكن وما يجب أن يكون. 3

نشير هنا إلى الوضعية تلك النظرة الفلسفية التي تقصي العنصر الديني من ضمن المصادر المعرفية؛ فالوضعية على حسب هذا السياق منهج في التفكير يستبعد النظرة الدينية عن مجموع النشاط المعرفي، فنحن إزاء منحى اختزالي أو ما يعبر عنه بالاكثائية ، هذه النزعة تعالج المشكلات الاجتماعية والاقتصادية وسياسيا والأخلاقية، بمنظور دنيوي يفترض مركزية الإنسان ومطلقية العقل الإنساني، أنها فلسفة تقصي الله من واقع الحياة البشرية. 4

ثانيا: النموذج الغربي المادي

يرى عبد الوهاب المسيري أن كثيرا من النظريات والمفاهيم متحيزة للمرجعية الغربية ما يجعلها غير قادرة على تفسير المجتمعات غير الغربية بشكل دقيق، حيث يركز النموذج الغربي على المادية والعقلانية الأدوات حيث يتم تقييم الظواهر والمجتمعات بناءا على معايير اقتصادية وتقنية فقط، متجاهلا الأبعاد القيمية والروحية...

وقد اعتبر عبد الوهاب المسيري أن هذا التحيز يقود إلى تفكيك الإنسان وتحويله إلى مجرد كائن وظيفي، بدلا من نظر إليه ككائن مركب يحمل أبعاد دينية وأخلاقية. فالفكر الانساني عنده يتأثر بمرجعيات دينية وثقافية وحضارية التي تحدد رؤيته للعالم ، وقد وضع ذلك في كتابه "العالم من منظور غربي".

³ عبد الوهاب المسيري ، إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودع وة إلى الاجتهاد ، ج1، ط1، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1995، ص19.

⁴ - محمد أمزيان، مرجع سبق ذكره، ص15.

إشكاليات في البحث الاجتماعي

ان التاريخ الغربي يقدّم على أنه المسار الطبيعي لتطور البشرية، مما يؤدي الى فرض مفاهيم مثل:

العلمانية ، التقدم ، الحداثة بمعايير غربية، دون مراعاة السياقات الاجتماعية والسياسية التي أنتجتها.

ثالثا: التعددية المعرفية

أكد المسيري على أهمية التعددية المعرفية ورفض فرض نموذج معرفي واحد على جميع المجتمعات،

وكانت رؤيته نقدية للعلوم الانسانية والاجتماعية الغربية موضحا أن أي معرفة بشرية تتضمن تحيزات نابعة

من السياق الثقافي والحضاري التي نشأة فيه. وعليه دعا إلى إنتاج معرفة أكثر توازنا تأخذ في الاعتبار تنوع

التجارب الانسانية، بدلا من فرض نموذج معرفي واحد على الجميع.....

إن النموذج المعرفي الغربي الذي يقدم نفسه كمعيار وحيد للمعرفة والتقدم، تشكل وفق أحداث تاريخية

وثقافية وحضارية خاصه ، لكنه يتعامل مع نفسه كمصدر وحيد للمعرفة العلمية والموضوعية، ويصنف باقي

نماذج على أنها غير عقلانية أو تقليدية، هنا يخلق هيمنة فكرية تجعل المجتمعات غير الغربية تتبنى

مفاهيم غربية دون مساءلة أو تفكير نقدي.

هذه الهيمنة التي جرت تبعية فكرية فسرّها العلامة ابن خلدون بـ "المغلوب مولع بتقليد الغالب" في كل

مناحي حياته حتى في أسلوب تفكيره وفهمه للظواهر المحيطة به.

المبحث الثاني: علاقة الفكر بالمجتمع

تؤكد الافتراضات التي طرحت في تشخيص نشأة وتطور النظرية الاجتماعية؛ على أن المعرفة

العلمية هي العنصر الأساس في بناء المجتمع فيتطور بتطورها وينحط بانحطاطها ، فالمعرفة العلمية بلا شك

إشكاليات في البحث الاجتماعي

تلعب دورا محوريا في بناء المجتمعات المتقدمة ، ومن هنا نجد أن هناك نمطا من الفكر قد يعوق حركة التنمية ونمط آخر قد يدعمه ويزيد من وتيرة حركته.

فالمعرفة العلمية التكنولوجية قد تلائم والمجتمع الصناعي أو تكنولوجي المتقدم، بينما هذه المعرفة قد لتتلاءم مع أوضاع الحياة البدائية والأولية، وهو ما يعني بلغة الوظيفية أن فكر المجتمع قد يصبح في بعض المراحل ميسرا لحركة المجتمع، أو قد يصبح هذا الفكر في حد ذاته معوقا لحركة المجتمع في مرحلة تالية.5

المطلب الأول: أساسيات في التنظير الاجتماعي

في هذا الإطار تتحدد علاقة الفكر بالمجتمع من خلال ثلاثة أبعاد رئيسية التي نوضحها كالتالي:

أولاً: النظرية في سياقها الاجتماعي

تحاول المعرفة العلمية تأمل ظواهر المجتمع والبحث فيها بهدف الوصول إلى مجموعة التعميمات التي تكشف عن طبيعتها واتجاه تفاعلاتها ، ومن خلال هذا تسعى المعرفة إلى استكشاف طبيعة الواقع الاجتماعي من حيث مكوناته، وطبيعة مشكلاته، خاصة إذا كان هذا الواقع يعاني من بعض حالات التفكك والانهييار.

ومن خلال البعد الثاني تحاول المعرفة من الانتقال من استكشاف وتشخيص ما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون، وقد تعمل المعرفة العلمية على نقد ما هو كائن بالنظر إلى ما ينبغي أن يكون ، فمثلا تشخيص المشكلة وتقديم الحلول؛ بحيث نجدها وهي تقدم هذه الحلول تقدم تصورا لمجتمع جديد خال من هذه المشكلات، و في هذا الصدد إذا نظرنا إلى غالبية المنظرين الاجتماعيين، فسوف نجدهم يقدمون هذه الحلول

⁵ - علي ليلي، علم الاجتماع المعرفة، كلية الآداب جامعة عين شمس، مصر القاهرة، (ب ت)، ص 176.

إشكاليات في البحث الاجتماعي

استنادا إلى إطار مرجعي لديهم يتضمن تصور لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع ، وقد يظهر هذا جليا في تصوراتهم الفكرية؛ على ذلك يأتي البعد الثالث الذي يقول : بأنه لابد على المنظر أن يطرح افتراضاته المتعلقة بالواقع، ليتحقق أو غيره من الباحثين في الواقع من صدق هذه الفروض ، فإذا ثبت صدقها تتحول إلى تعميم أو نظرية تقوم بدور التفسير والتحليل حتى يثبت الواقع زيفها أو يعدلها.

يعد التغير الاجتماعي عنصرا محوريا في بناء المجتمع، إذ يشير وقوعه إلى القدرة الحيوية التي تحكم تفاعلاته، لذلك كان التركيز على أهمية التغير الاجتماعي مع قدر الفهم الذي تحقق للمجتمع ، وإذا تأملنا تطور النظرية الاجتماعية الغربية فإننا ندرك أنه بقدر واقعيتها وعلميتها في دراسة المجتمع، يكون تركيزها على التغير الاجتماعي وسعيها لفهمه.⁶

وعليه ما هي طبيعة العلاقة بين النظرية الاجتماعية والواقع الاجتماعي؟ وهل النظرية السوسيولوجية هي نظرية علمية ؟ أم هي نظرية معيارية ؟ وهل بالمقدور أن نقم قطيعة معرفية مع الحقل النظري الغربي؟

ثانيا: ماذا تقدم النظرية للبحث؟

النظرية، وعن طريق مجموع افتراضاته، تلعب دورا أساسيا في العلم لأنها تساعد في توحيد وتوضيح ما يتم التأكد منه حول الواقع المدروس، وبالتالي تمنح الانسجام للميدان المعرفي والبحثي بفضل ما تقترح من التفسيرات يحتمل أن تظل محل اختبار دائم على محك الوقائع والأحداث. هذا هو، إذا، التوضيح الجيد لسيرورة الاستنتاج أو الاستنباط.

⁶ - حنان محمد عبد المجيد، التغير الاجتماعي في الفكر الإسلامي الحديث ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، مكتبة لبنان للتوزيع، 2011، ص11.

إشكاليات في البحث الاجتماعي

إن بعض النظريات تسمح بإقامة القوانين، وتقدم هذه المجموعة من القوانين عادة على أنها النظرية الخاصة بميدان دراسة معين؛ فالقانون في النظرية هو بمثابة توضيح وتبيان للعلاقة الثابتة بين الظواهر المعينة. 7 والنظرية هي جملة المصطلحات والتعريفات والافتراضات لها علاقة ببعضها البعض، والتي تقترح رؤية منظمة للظاهرة، وذلك بهدف عرضها والتنبؤ بمظاهرها.

في إطار ماذا تقدر النظرية للبحث العلمي ، يعرف عبد الباسط محمد حسن في كتابه أصول البحث الاجتماعي " النظرية أنها: عبارة عن إطار فكري يفسر مجموعة من القضايا والحقائق العلمية، ويضعها في نسق علمي مترابط"؛ وبأنها مجموعة من القضايا تتوافر فيها شروط متعددة من أهمها: أن تكون القضايا مستندة إلى أفكار محددة تماما، وأن تكون القضايا متسقة الواحدة مع الأخرى، وأن تكون على صورة يمكن أن تستمد منها التعميمات بإتباع الأسلوب الاستقرائي، وأن تكون القضايا المكونة للنظريات ذات فائدة بحيث يمكن أن تقود الباحثين إلى مزيد من الملاحظات والتعميمات لتوسيع نطاق المعرفة؛ وبأنها تفسير لظاهرة معينة من خلال نسق استنباطي، وبأنها مجموعة من القضايا التي ترتبط معا بطريقة علمية منظمة، والتي تعمل على تحديد العلاقات السببية بين المتغيرات. 8

المبحث الثالث: المنهج، إشكالية فهم و تطبيق

يطرح البعض إشكالية خضوع العلوم الإنسانية والاجتماعية لقواعد المنهج، وهذا يطرح من جهة أخرى مدى علمية العلوم الإنسانية بالمعنى الدقيق للعلم، ففي السابق لم يتقبل العلماء تطبيق المناهج العلمية في مجال العلوم الإنسانية فقد كان البعض ينظر إلى هذه العلوم بأنها ليست علوما كما هو الحال بالنسبة

⁷- مورييس أنجرس، منهجية البحث في العلوم الإنسانية، تر: بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006، ص54.

⁸- محمد عبد الباسط الحسن، أصول البحث الاجتماعي، مكتبة وهبة، مصر، ط2، 1998، ص49.

إشكاليات في البحث الاجتماعي

للعلوم الطبيعية، إلا أن هذا الأمر من جهة أخرى يطرح خصوصية العلوم الإنسانية وتعدد ظواهرها، وعدم تجانسها وعدم ثباتها وصعوبة استخدام التجريب الذي يعتبر مصدر للعلم.

المطلب الأول: المنهج والظاهرة الاجتماعية

و بالعودة إلى التاريخ المعرفي نجد إشكاليات المنهج في فهم الظواهر الإنسانية رافقت ميلاد العلوم الإنسانية والاجتماعية، ابتداء من ابن خلدون الذي وضع منهجية نقلت علم التاريخ من طور التزييف والنقل واللاموضوعية إلى طور منهجي جديد يعتمد المشاهدة والقياس والتثبت وإعمال العقل، وهي تقنيات عبر عنها ابن خلدون بـ "المطابقة" كقانون " في تمييز الحق من الباطل في الإخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه ، فابن خلدون أسس لعلم التاريخ وعلم الاجتماع انطلاقا من فهم الظاهرة في سياقها الاجتماعي والثقافي والحضاري.

أولا: كيف نفهم الظاهرة الاجتماعية ؟

ابن خلدون، منهج هـ في التاريخ يقوم على فهم الحاضر بدراسة خلفيته التاريخية والدور الذي لعبته الأحداث في الماضي و يحاول إيجاد العلاقة بين أحداث الماضي و وقائع الحاضر المشابهة لها وذلك بهدف الوصول إلى تعميمات تفسر أحداث الماضي وتتنطبق على الحاضر". 9 مما يعني أنه "طريقة لتناول وتأويل حادثة وقعت في الماضي، وفق إجراء البحث والفحص الخاص بالوثائق". 10 فالتاريخ في ظاهره خبر وفي باطنه نظر. أي أنه يمد الباحث ويطلعه على التغيرات الحاصلة في الظاهرة المراد دراستها ، بحيث تكون دراسته أكثر تعمقا ودقة.

⁹- فوزي غرابية و آخرون، أساليب البحث العلمي في العلوم الاجتماعية والإنسانية، دار وائل، عمان، ط3، 2002، ص30.

¹⁰- موريس أنجرس، مرجع سابق، ص 105.

إشكاليات في البحث الاجتماعي

إذا كان التاريخ غير قابل للإعادة، فالمنهج التاريخي الذي طرحه ابن خلدون بإمكانه أن يسترد أحداث الماضي لدراستها ومحاولة إيجاد تفسير لها في الحاضر وللوقوف على قوانين أو نتائج من شأنها أن تحكم سير هذه الظواهر مستقبلا، ومن خلال كتابات ابن خلدون تعلمنا أنّ علم الاجتماع سيكون تاريخا أو لن يكون.

إن السوسيولوجيا علم في المنهج موضوعها "العمران البشري والاجتماع الإنساني". وهذا الاعتبار ليس مغامرة بقدر ما يعبر عن حقيقة و إشكالية معقدة نشأ علم الاجتماع الحديث بين ظهرائها ابتداء من أوجست كونت الذي خاض صراعا مريرا لتأكيد فعالية مناهج التفكير الوضعية على حساب المناهج التجريدية، ووضعه لأسس ومعايير لسلامة البحث العلمي وعلامات فارقة لقياس التقدم الاجتماعي، وحتى إيميل دوركايم الذي أخذ على عاتقه وأنصاره تثبيت علم الاجتماع ومجابهة أطروحات المدرسة النفسية التي أنكرت وجود ظاهرة اجتماعية، فما كان منه إلا التحصن بالأدوات المنهجية لاسيما الإحصائية منها والتي تمكن بواسطتها من هزيمة المدرسة النفسية وتوجيه ضربة ساحقة لها عبر بحثه "الانتحار".

ومن القضايا التي أثارت أكبر قدر من الاعتراضات القضية القائلة بوجود دراسة الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء ، وهذه القضية بذات هي الأساس الذي تقوم عليه المنهجية العلمية في علم الاجتماع، أنه لا بد من دراسة الظواهر الاجتماعية كأشياء مادية بمعنى الضيق للكلمة. فما حقيقة الشيء في الواقع ؟

إن الشيء يقابل الفكرة، بمعنى أن معرفتنا له تأتي من الخارج على حين أن معرفتنا بالفكرة تأتي من الداخل والشيء هو كل ما يصلح أن يكون مادة للمعرفة ، ولكن بشرط ألا تسمح له طبيعته بأن يندمج في العقل الذي يدركه، وهو كل ما لا نستطيع أن نكون عنه فكرة تنطبق عليه تمام الانطباق لمجرد قيامنا بعملية

إشكاليات في البحث الاجتماعي

عقلية تحليلية، بتعبير آخر أن إميل دوركايم يؤكد على التمسك بهذا المبدأ الآتي: وهو أننا نجهل كل شيء عن حقيقة الظاهرة، وأننا لا نستطيع الكشف عن خواصها الذاتية أو عن الأسباب المجهولة التي تخضع لها عن طريق الملاحظة الداخلية مهما بلغت هذه الطريقة مبلغا كبيرا من الدقة. 11

لكن إذا كانت هذه الظاهرة الإنسانية والاجتماعية ظاهرة دينية إسلامية، هل نتمسك بهذا المبدأ الاستمولوجي (القطعية)، ونتخلى عن عقيدتنا وأحكامنا القطعية المسبقة التي تشكلت من خلال ارث معرفي قائم على النص القرآني والحديث النبوي ومصادر التشريع المعروفة، أم لابد من إسقاط هذا المبدأ المبني على خاصية الموضوعية، والتأسيس لعلم الاجتماع الإسلامي بمرجعية إسلامية، ولا أقول أسلمة المعرفة؛ لأن الإسلام له أصوله المعرفية والمنهجية الكافية لتفسير وفهم وضبط والتحكم في الظواهر والتنبؤ بحدوثها. فالأحاديث النبوية وضحت تداعيات ونتائج الثورات الاجتماعية والسياسية والتي صدّقتها الواقع اليوم، وفي الماضي البعيد والقريب، فإذا كانت الثورات في أوربا أنتجت فكرا وتقدما وتحضرا، فإن الثورات العربية أنتجت هرجا ومرجا وتخلفا، وأعادت إنتاج النظام القديم، وهذا إن دل إنما يدل على خصوصية كل مجتمع، هذا من جهة؛ ومن جهة تطبيق المنهج العلمي التجريبي فإنه من الصعب بمكان تطبيقه على الظواهر الاجتماعية في ظل التغيرات الاجتماعية وتعهدها.

ثانيا: التعقيد في العلوم الاجتماعية

إن الحياة الاجتماعية تخضع لكثير من التغيرات والمؤثرات النفسية والطبيعية والثقافية والاجتماعية، فالجماعات البشرية تتكون من مجموعات يختلفون فيما بينهم من النواحي النفسية، كما أنهم يتأثرون بالوسط

¹¹ - إميل دوركايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، تق: بوزيدة عبد الرحمان، موفم للنشر، سلسلة العلوم الإنسانية تحت إشراف علي

كنز، 1990، ص10

إشكاليات في البحث الاجتماعي

الطبيعي الذي يعيشون فيه ويخضعون للمؤثرات الجغرافية، ويتأثرون في نفس الوقت بالظروف الثقافية والاجتماعية التي تسود مجتمعاتهم كعرف والتقاليد وأنظمة الحكم ونماذج العلاقات الاجتماعية التي تحددها المكانات والطبقات الاجتماعية. 12

لذا فإن الظواهر الاجتماعية التي تنبثق من اجتماع الأفراد، ومن تبادل آرائهم ووجهات نظرهم، تبدو غاية في التعقيد وعدم الوضوح بحيث يصعب فهمها، واكتشاف القوانين العامة التي تحكمها. في هذا المجال بالإضافة إلى ضعف الموضوعية في مجال الدراسات الإنسانية نظرا لاتصالها بالإنسان موضوع الدراسة، ويمكن ذكر الأسباب التالية:

أ- التعقيد:

تتعلق الظاهرة الإنسانية بعناصر متعددة ومعقدة، مثل العناصر الجغرافية والاقتصادية والسياسية والثقافية بالإضافة إلى المعتقدات والعادات والأعراف، من خلال كل ذلك يجد الباحث نفسه في مجال الدراسات الإنسانية والاجتماعية أمام تنوع كبير ومتغيرات كثيرة تتدخل في الظاهرة الإنسانية وتعيدها تعقيدا. ب- عدم تجانس:

يقوم البحث العلمي على فرضية التجانس أو فرضية وحدة الطبيعة، والظواهر الطبيعية نتيجة تشابه بعضها يمكن تقسيمها إلى فئات متجانسة واستخراج القوانين التي تحكم كل فئة على حدة. لكن الظواهر السلوكية ظواهر فردية ويصعب تكرارها ومن ثم من الصعب أن نحصل على تعميمات.

ج- ديناميكية الظواهر السلوكية:

¹² - عبد الباسط محمد حسن، مرجع سابق، ص 105.

إشكاليات في البحث الاجتماعي

نتيجة لسرعة تغير الظاهرة الإنسانية والسلوكية، فإن الباحث قد يجد نفسه في الوقت الذي يدرس

فيه الظاهرة السلوكية الإنسانية أنه يدرس الظاهرة من الناحية التاريخية وليس دراستها في الوقت الراهن لأن

ثمة تغير حدث للظاهرة المدروسة.

د- عدم القدرة على استخدام التجريب في مجال الظاهرة الاجتماعية:

إذا كانت التجربة من ركائز البحث العلمي، فإنها في مجال العلوم الإنسانية لا مكان لها، فالظاهرة

الإنسانية ظاهرة سلوكية لا نستطيع إخضاعها للتجريب، فهي ظاهرة معنوية غير ملموسة. وقد بدأ الباحثون

في مجال علم النفس محاولة استخدام التجريب الدراسات النفسية إلا أن ذلك يبقى محدودا جدا.

المطلب الثاني : الموضوعية في مجال الدراسات الاجتماعية

إن الموضوعية هي من خصائص العلم والبحث العلمي وقد يحاول الباحث في مجال العلوم

الإنسانية أن يتقيد بضوابط الموضوعية، إلا أنه يجد نفسه أحيانا في اتجاه فكري معين، وقد تجعل الباحث

يوصف بأنه متحيز إلى تيار معين، مثل الاتجاه الاشتراكي أو الاتجاه الليبرالي، أو غير ذلك.¹³

أولا: الموضوعية خاصة علمية

إن دراسة الباحث الاجتماعي لظاهرة إنسانية معينة تجعله يسعى لتحقيق نتائج في البحث تتوافق مع

معتقداته وذاتيته أي مع عواطفه وأحاسيسه وغير ذلك، في حين أن الأمر في مجال العلوم الطبيعية يجعل

من الظاهرة المدروسة ظاهرة مادية موجودة خارج فكر ووعي الإنسان وهنا يجد نفسه يتعامل معها بكل حياد.

¹³ - نفس المرجع السابق، ص124.

إشكاليات في البحث الاجتماعي

من خلال كل ما تطرقنا له، نلاحظ أن الظاهرة الإنسانية هي ظاهرة معقدة وصعبة التعامل معها من خلال ذلك اعتبر بعض العلماء أن العلوم الإنسانية والاجتماعية لا يمكن أن نطبق عليها المنهج العلمي الذي يتميز بالتجريد والعموم والوصول إلى نتائج نستطيع تعميمها، ومن ثم فقد اعتبرها البعض بأنها لا ترقى إلى درجة العلم، والاعتقاد بعدم إمكانية تطبيق المناهج العلمية عليها.

إن تطبيق المنهج العلمي في دراسة المجتمع له خصوصياته التي تميزه عن العلوم الطبيعية؛ فالإنسان موضوع البحث، ليس جماداً؛ بل كائنات حيا له مشاعره، وأحاسيسه التي لا يمكن دائماً التنبؤ بها، كما أن الباحث الاجتماعي لكونه جزء من المجتمع فإنه يواجه تحدياً في التعامل بموضوعية مع قضايا تهمه، وتمس وجوده، وانتمائه؛ بالإضافة إلى الالتزام بالحقيقة في مجال البحث الاجتماعي له محاذيره خصوصاً في المجتمعات التي تضع قيوداً على حرية الرأي والتعبير.

ويمكن القول بصفة عامة أن العلم هو في الأساس موجه إلى دراسة طبيعية، ويشتمل هذا المصطلح على العالم الفيزيقي وكذا عالم الأحياء، وبكلمات أخرى، فإن كل ما هو موجود أو منتج دون تدخل من طرف الإنسان يمثل ما نسميه بالطبيعة، أما الفروع الخاصة مثل: الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا فقد وضعت أصلاً لدراسة هذه الطبيعة، وسواء سميت بالعلوم الطبيعية أو الدقيقة، أو مجرد علوم، فإنها حالياً تسمى بعلوم الطبيعة.

هناك فروع أخرى متصلة بها مثل: الفلك والجيولوجيا، وأخرى جديدة تكونت عن طريق ما يسمى بالتوأمة مثل: الفيزياء الفلكية، والكيمياء العضوية. لقد مثلت علوم الطبيعة طريقة عمل يحتذى بها، لم تقتأ تتطور وتتمو بشكل معتبر إلى يومنا هذا.

ثانيا: مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية

يعتبر الإنسان موضوع دراسة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ولها خصائصها ومميزاتها العلمية، و الهدف من مثل هذه الدراسات التي تجري في مختلف فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية هو معرفة وفهم الإنسان ومعنى أو دلالة أفعاله.

تشتمل هذه العلوم التي كانت تسمى في السابق بعلوم الإنسان، ثم لاحقا بالعلوم الاجتماعية خاصة في العالم الأنجلوسكسوني على فروع عديدة تقوم بدراسة الإنسان من جوانب متعددة: ففي علم النفس مثلا فإن التركيز يكون بصفة خاصة على الظواهر النفسية، أما في علم الاجتماع؛ فإننا سنبحث عن تفسير الظواهر الاجتماعية، أما في التاريخ فإننا سنقوم بدراسة الأحداث والوقائع الماضية، أما العلاقات السياسية والاقتصادية والإدارية فإنها ستكون موضوع اهتمام فروع علم السياسية وعلم الاقتصاد والإدارة.

إن العلوم الإنسانية والاجتماعية لها هي الأخرى طريقة عملها؛ ولفهمها لابد أن نضع في أذهاننا أننا بصدد دراسة كائنات بشرية، إن القضية هنا تختلف عما هي عليه في علوم الطبيعة، ذلك أننا هنا نتعامل مع كائن يتحدث، يتجاوب ويتفاعل مع أمثاله، ويمتلك وعيا ومقدرة على التعلم والفهم، لهذا فالتعامل مع "الموضوع" هنا ينبغي أن يكون مصحوبا بحذر وعناية كبيرين، فقبل الشروع في دراسة هذا الكائن البشري، مثلا لابد من طلب إذنه؛ حيث يمكن أن يعارض ذلك أو يقبله، وكذلك فإن استعمال أدوات البحث لا يتم عادة إلا بموافقة الأشخاص موضوع الدراسة. هذا الاستعمال لأدوات البحث (Instrumentation) يمكن أن يأخذ أشكالا خاصة، ومنها إمكانية استجواب هذا الموضوع وهو الكائن البشري.

إن العلوم الإنسانية ليست تقليدا أعمى لعلوم الطبيعة، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار مميزات مواضيع كل منهما، وحتى وإن كانت مجالات النشاط محددة في إطار علمي، ومع كل ذلك فلا يوجد

إشكاليات في البحث الاجتماعي

تعارض في الطريقة العلمية المتبعة في كلتا الحالتين ما عدا بعض الفروق التي لا مفر منها أثناء المعالجة الفعلية اعتبارا لخصوصيات كل موضوع.

يلي ذلك أن الكائن البشري يعطي معنى لما يحيط به، وبكلمات أخرى إنه يؤول وجوده، إلا أنه من غير المعقول أن يكون الأمر كذلك فيما يخص الكائن المادي أو الطبيعي؛ فمثلا ليس في مقدور حجر كبير أن يقاوم التحليل الذي نجريه عليه، أما الشخص فيمكنه أن يعارض التأويل الذي يقدمه طرف آخر حول أفعاله و سلوكياته .

يضاف إلى هذا ، فإن الباحث في العلوم الإنسانية هو من نفس طبيعة الموضوع المدروس (المبحوث)، ولهذا ينبغي علينا مضاعفة الحذر حول ما نقدمه أو ما نذكر به حول تجربتنا الشخصية، ذلك لأنها ليست بالضرورة هي نفس تجربة الآخرين، ولهذا ينبغي علينا أيضا تجنب الآخرين دوافعنا وحوافزنا الخاصة.

يضاف إلى ذلك أن الأشخاص أو الجماعات ليسوا صورا يطابق كل منها الأخرى، فكل شخص هو عبارة لتجارب أصلية يجعله في النهاية فريد من نوعه، باختصار هناك مجموعة من العوامل التي يمكن أن تتدخل في سلوك كل شخص وتصرفه، وهذا ما يجعل من مهمة مراقبة هذه العوامل مهمة صعبة للغاية، هذا ما يجعل الملاحظة في هذه الحالة أمرا معقدا منه لو تعلق الأمر بدراسة حيوانات من نفس الفصيلة أو دراسة عينتين من نفس المعدن، وإذا كان في إمكاننا بالنسبة إلى الحالة الأخيرة، إعادة إنتاج وتكرار التجربة كلما دعت الضرورة إلى ذلك لأن مكونات الموضوع ستظل هي عينها، فإن الوضعيات والمواضيع تتطلب سلسلة من المحاذير والشروط التي لا يمكننا المحافظة عليها دائما وبسهولة، وقد يكون هدفنا هو دراسة بعض

إشكاليات في البحث الاجتماعي

السلوكيات المحددة فقط، ولا تقبل بذلك إلا بعض العناصر وعن طواعية، ولهذا لا يمكن إعادة إنتاج عن طوعية وضعيات تمت دراستها، واعتبار ذلك كما لو أننا اشتغلنا حول مواضيع فيزيقية.

بعبارة أخرى، فإن العالم المادي أكثر بساطة من العالم الإنساني، فالعالم الفيزيقي لا يمكنه إنتاج نفسه، أما العالم الحي فيمكنه ذلك ولكن بدرجة أقل تعقيدا من الكائن البشري، لهذا فموضوع العلوم الإنسانية هو أكثر تعقيدا من موضع العلوم الطبيعية، حتى ولو كنا سواء في هذا الجانب أو ذاك.

لا نزال بعيدين كثيرا عن النفوذ إلى كل الأسرار، ذلك أن كل شخص هو ذات أو (هوية) أصلية؛ وبالتالي مظهرا من مظاهر تعقد الموضوع، والأكثر من هذا حتى وإن كان من الممكن أن يخضع الكائن البشري للقياس، فقياس أفعاله وتصرفاته ليس أمرا سهلا، كما هو حال الكائن المادي في علوم الطبيعة؛ في هذه الحالة الأخيرة، فإنه من الممكن استعمال مجموعة من الأدوات التي لا تم دنا بالمعاني فقط ولكنها تمدنا بقياسات دقيقة للظواهر الأساسية المطلوب دراستها، أما في العلوم الإنسانية فإذا كانت بعض الظواهر قابلة للقياس مثل : حساب تكاليف المعيشة ، فهي ممكنة لكن هناك ظواهر أخرى مثل الهوية الوطنية لا يمكن فهمها بالضرورة بواسطة قياسات كمية.

أيضا، إذا كانت العلوم الإنسانية تميل إلى التفسير، فإنها في كثير من الأحيان لا تسمح بالدراسة الدقيقة للعلل أو المسببات؛ في حين أن الأمر في علوم الطبيعة، وبفضل التجربة، منتشرا إلى حد كبير، ولهذا يمكننا إثارة ومراقبة الوضعيات التي تسمح لنا بدراسة الآثار التي تحدثها ظاهرة ما في ظاهرة أخرى، أما في العلوم الإنسانية فقد تتداخل عدة ظواهر ، مما يجعل من الصعب بل من المستحيل مراقبة الظواهر التي تسمح بعزل السبب أو الأسباب، وإذا كان من الممكن إعفاء بعض العوامل المفسرة لظاهرة ما، فإنه من النادر أن يحدث ذلك بالنسبة إلى علاقة بين سبب ونتيجة.

إشكاليات في البحث الاجتماعي

في الأخير فإن العلوم الإنسانية والاجتماعية تحاول وضع نموذجاً لتسهيل فهمها للظواهر يتم بواسطته أخذ بعين الاعتبار المعنى الذي تعطيه الكائنات البشرية لسلوكياتها ضمن مجموع التأويلات. يبقى التعقيد في العلوم الإنسانية والاجتماعية شيء نسبي فالظاهرة تبدو للناس معقدة إذا صعب عليهم فهمها أو إدراك حقيقتها. لهذا ترى "Madelienne Grawitz" أن الاقتراب السوسيولوجي هو دقة المنهج والتقنية المستعملة بدرجات متجانسة وليست بطريقة عشوائية، وهذا لدراسة مواضيع تحمل طابع التعقيد.¹⁴

فالتعقيد هنا ليس في الظاهرة فقط، حتى في طبيعة المنهج المستخدم في دراستها، لهذا فاختيار المنهج العلمي هو فهم الظاهرة وكشف لبس عنها. إذن مشكلة العلوم الاجتماعية ليس في الحقل النظري الذي لابد أن نستورده، إنما هو في البناء المنهجي والأدوات وتقنيات المستعملة في فهم الواقع.

¹⁴ - Madeleine Grawtiz, **Methodes des sciences sociales** , Dalloz, Paris ,10^{eme} Edition ,1996,p303.

خاتمة:

يستهلك رجال الفكر والسياسة يوميا في العالم العربي مفاهيم مستتبطة من الغرب ومشتقة من نظريات مختلفة لها ارتباط وثيق بالتغيرات العميقة التي عرفتتها المجتمعات الغربية في القرن الماضي، مثل: الديمقراطية، البرجوازية، الصراع، الطبقات، العلمانية، اللائكية، تحرير المرأة، حرية التعبير، دولة القانون، العصرية، حقوق الإنسان، الخ.... فهم يتجاهلون الطرائق المختلفة التي بنيت عليها مجتمعهم، كما يتجاهلون كيف بنيت شخصية الفرد الأوربي من خلال القيمة، ومن خلال أذواقه واختياراته وعقيدته، وتطلعاته الخ.

إن المفاهيم والنظريات الغربية قد تدرك كأدوات صالحة للاستغلال كما هي بدون تكيف نظري، وكما يكون هذا التكيف صائب وممكننا لا بد أن نتعرف على نمطين من المجتمع: أ- المجتمع الذي يأخذ. ب- المجتمع الذي يعطي. وهذا معناه أن تستغل هذه النظريات والأدوات المنهجية في إطار خصوصية كل المجتمع؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى ينبغي أن نؤسس ونكتسب حقلا نظريا ذلك الحقل الذي نجح في تحديده مفكرو عصر التنوير، وفرضوه اجتماعيا وسياسي على العرب.

إن إنشاء مشروعية الحقل النظري قد ينبغي أن يعاد إنتاجه ضمن كل رقعة جغرافية حضارية، وهذا يتم ضمن موارد ثقافية واجتماعية وتاريخية واقتصادية وسياسية الخاصة بهذه الرقعة. فرداءة البحث السوسيولوجي مثلا في البلدان العربية ناجم أساسا عن الصعوبات التي تواجه مقارنة الواقع، وهذا نظرا للاستعمال الدوغماتي (الجامد) للنظريات الغربية التي لم تساهم في بنائها السوسيولوجيا في العالم العربي.

قائمة المراجع:

إحسان محمد حسن، نظريات الاجتماعية المتقدمة، دار وائل للنشر، الأردن، عمان، ط 2005، 1ص-18ص-20.

اميل دوركايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، تق: بوزيدة عبد الرحمان، موفم للنشر، سلسلة العلوم

الإنسانية، تحت إشراف علي كنز، 1990، ص10

حنان محمد عبد المجيد، التغير الاجتماعي في الفكر الإسلامي الحديث، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،

فرجينيا، مكتبة لبنان للتوزيع، 2011، ص11.

عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، ص 105.

عبد الوهاب المسيري، إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة إلى الاجتهاد، ج 1، ط 1، فرجينيا: المعهد العالمي

للفكر الإسلامي، 1995، ص19.

علي ليلي، علم الاجتماع المعرفة، كلية الآداب جامعة عين شمس، مصر القاهرة، (ب ت)، ص 176.

فوزي غرايبي و آخرون، أساليب البحث العلمي في العلوم الاجتماعية والإنسانية، دار وائل، عمان، ط 3،

2002، ص30.

محمد عبد الباسط الحسن، أصول البحث الاجتماعي، مكتبة وهبة، مصر، ط 12، 1998، ص49.

موريس أنجرس، منهجية البحث في العلوم الإنسانية، تر: بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصبة للنشر،

الجزائر، 2006، ص54.

Madeleine Grawtiz, Methodes des sciences sociales , Dalloz, Paris ,10eme Edition
1996,p303